

دراسة نقدية وتحليلية لرواية تاريخية "الطلسم" لوالتر سكوت
Analytical and critical study of the historical novel "*al-Talism*"
by Walter Scott

Javeria

Doctoral Candidate, Department of Arabic, BZU, Multan

Prof. Dr Azra Fazal

Professor of Arabic, BZU, University Multan

Abstract

During a truce between the Christian armies taking part in the third Crusade, and the infidel forces under Sultan Salahuddin, Sir Kenneth, on his way to Syria, encountered a Saracen Emir, whom he unhorsed, and they then rode together, discoursing on love and necromancy, towards the cave of the hermit Theodoric of Engaddi. This hermit was in correspondence with the pope, and the knight was charged to communicate secret information. Having provided the travelers with refreshment, the anchorite, as soon as the Saracen slept, conducted his companion to a chapel, where he witnessed a procession, and was recognized by the Lady Edith, to whom he had devoted his heart and sword. He was then startled by the sudden appearance of the dwarfs, and, having reached his couch again, watched the hermit scourging himself until he fell asleep. About the same time Richard Coeur de Lion had succumbed to an attack of fever, and as he lay in his gorgeous tent at Ascalon, Sir Kenneth arrived accompanied by a

Moorish physician, who had cured his squire, and who offered to restore the king to health. Philip of France at length persuaded him to refer the matter to the council, and Sir Kenneth was charged to watch the English standard until daybreak, with a favorite hound as his only companion. Soon after midnight, however, the dwarf Necbatanus approached him with Lady Edith's ring, as a token that his attendance was required to decide a wager she had with the queen; and during his absence from his post the banner was carried off, and his dog severely wounded. Overcome with shame and grief, he was accosted by the physician, who dressed the animal's wound, and, having entrusted Sir Kenneth with Salahuddin's desire to marry the Lady Edith, proposed that he should seek the Saracen ruler's protection against the wrath of Richard. The valiant Scot, however, resolved to confront the king and reveal the Sultan's purpose; but it availed him not, and he was sentenced to death, in spite of the intercessions of the queen and his lady-love; when the hermit, and then the physician, arrived, and Richard having yielded to their entreaties, Sir Kenneth was simply forbidden to appear before him again. A procession of the Christian armies and their leaders had already been arranged in token of amity to Richard; and as they marched past him, seated on horseback, with the slave holding the hound among his attendants, the dog suddenly sprang at the Marquis Conrade, who was thus convicted of having injured the animal, and betrayed his guilt by exclaiming, "I never touched the banner." Not being permitted to fight the Teuton himself, the king undertook to provide a champion, and Salahuddin to make all needful preparations

for the battle. Accompanied by Queen Berengaria and Lady Edith, Richard was met by the Saracen with a brilliant retinue, and discovered, in the person of his entertainer, the physician who had cured his fever, and saved Sir Kenneth, whom he found prepared to do battle for him on the morrow, with the hermit as his confessor. The encounter took place soon after sunrise, in the presence of the assembled hosts, and Conrade, who was wounded and unhorsed, was tended by the Sultan in the grand-master's tent, while the victorious knight was unarmed by the royal ladies, and made known by Richard as the Prince Royal of Scotland. At noon the Sultan welcomed his guests to a banquet, but, as the grand-master was raising a goblet to his lips, Necbatanus uttered the words *accipe hoc*, and Salahuddin decapitated the templar with his saber; on which the dwarf explained that, hidden behind a curtain, he had seen him stab his accomplice the Marquis of Montserrat, obviously to prevent him from revealing their infamous plots, while he answered his appeal for mercy in the words he had repeated. The next day the young prince was married to Lady Edith, and presented by the Sultan with his talisman, the Crusade was abandoned, and Richard, on his way homewards, was imprisoned by the Austrians in the Tyrol.

Keywords: Walter Scott, historical, "*al-Talism*", analytical and critical study

مقدمة

الحمد لله عدد قطر الامطار. وعدد أوراق الأشجار وصل على محمد من صل الليل والنهار وبعد. إن علاقة الرواية بالتاريخ علاقة قديمة ووثيقة لعلها تعود إلى الجزور الأولى لظهور سبل الحكى عند الإنسان. فقد ظهرت الرواية كنوع أدبي الذى يدل على صعود البراجوزية الأوروبية ومختبرا لفحص تطلعاتها¹ إضافة إلى أن التاريخ هو موضوع الرواية، تاريخ البشر والمجتمعات.² يعتبر النقاد أن مصطلح

(الرواية التاريخية) ظهر عند الغرب في مطلع قرن التاسع عشر مع والتر سكوت الذي وفق في الجمع بين الشخصيات الواقعية والشخصيات الخيالية، وأحلبها في إطار واقعي وجعل تتحرك في ضوء أحداث كبرى³ يبدو إن علاقة الرواية بالتاريخ علاقة قديمة حيث التزامن صعود الرواية الأوروبية في القرن التاسع عشر مع صعود علم التاريخ⁴، وقد حدد "جورج لوكاش" ميلاد هذه العلاقة بأنهييار نابليون تقريبا في مطلع القرن التاسع عشر⁵.

عرض الرواية

تدور احداث "طلمس" حول احدي من أهم الحملات الصليبية، وأما مكان الأحداث فهو الديار المقدسة من حول مدينة القدس. والمناخ التاريخي فيها، منذ البداية ، هو مناخ الانقسام والصراعات من الملوك الفرنجة وأمراءهم، حيث أن الصعوبات التي راح يعاني منها الصليبيون في ذلك الحين، على يدى صلاح الدين وقواته، كانت اربكت كبار الملوك والقادة وجعلتهم يتبادلون اللوم، ويخوضون المناورات والمؤامرات ضد بعضهم بعضا. ومن أبرز كبار المسؤولين هولاء في ذلك الحين ريتشارد قلب الأسد نفسه وفيليب ملك فرنسا، وليو بولد دوق النمسا، والماركيز دي مونسييرا، والمعلم الأكبر بفرسان المعبد، كان هذا المعالم جميل كله، في ذلك الحين لا يطبق بعضهم بعضا ويسعى كل واحد فيه إلى الإلغاء الآخرين، كما هي الحال السياسة منذ ابد الأبدين.

المناظر في الرواية

منظر "درة الصحراء" عند الحرب:

كانت درة الصحراء إلى عهد قريب عينا منعزلة لا يميزها وسط القفار سوى عدد من أشجار النخيل المتباعدة، ولكنها الآن محط لخيام عديدة مضروبة، وعليها أعلام مزركشة وزينات من الذهب تتألق تألقا شديدا وتعكس ألوان الزاهية، والشمس تسطع عليها وهي ماثلة للغروب. وكانت السرادقات الضخمة مغطاة بأزهي الألوان، من قرمزي إلى أصفر قاقع، إلى أزرق شاحب، وغير ذلك من الأصباغ ذات الرونق والسناء، وأعلى عمدتها أوقوائم الخيام كانت محلاة يرمان من الذهب، وأعلام صغيرة من الحرير؛ ولكن إلى هذه السرادقات المتميزة كان هناك، على ما رأى توماس ديفو، عدد كبير من خيام العرب المألوفة السوداء، تكفى على ظنه لإيواء جيش من خمسة آلاف رجل على الطريقة الشرقية؛ وكان هناك عدد من الأعراب والكرد يتناسب واتساع المخيم، يتجمعون على عجل، وكل منهم يقود جواده بيده، ويصحب حشدهم ضجيج يكاد يصم الأذان يصدر عن آلتهم الصخابة التي كانوا يضربون عليها موسيقاهم العسكرية، والتي أشعلت في العرب طوال العصور حماس الحرب والقتال.

منظر "بحر الميت":

لم تكن الشمس المحرقة في سوريا قد بلغت كبد السماء، حينما كان فارس من فرسان الصليب الأحمر وقد ترك بلاده النائية في الشمال، والتحق بجماعة الصليبيين في فلسطين يسير الهويني في الصحراء الرملية التي تقع على ضفاف البحر الميت حيث تتدفق أمواج الأردن في ذلك البحر الداخلي الذي ليس لمائة مخرج. ولما رأى المياه المظلمة يعج عجاجها، وهي في لونها وطبيعتها تختلف عن مياه البحيرات جميعاً رسم علامة الصليب على نفسه، وانتابته رعدة حينما تذكر أن تحت تلك الأمواج التي تتكسر في هدوء، تندثر مدن الوادي التي كانت تتيه يوماً بعزها، فأنزل عليها ربك الصواعق من السماء، ونفت فيها من باطن الأرض ناراً حامية فدكها دكا، ولم تبق منها إلا أطلال طمرها هذا البحر الذي ليس في جوفه سمك ولا على سطحه سفين، ولا وجود كما وجود غيره من البحار بقطرة ماء على المحيطات، كأن مياهه الكثيرة لن تستقر إلا في قاعه الموحش. وكل ما جاوره من يابس "كبريت وملح، أرض لا زرع فيها ولا ثمر ولا يكسوها عشب"⁶ كما كانت في عهد موسى. وتستطيع أن تسمي ذلك اليباس "ميتاً" كذلك، كما تسمي البحر، فهو لا ينبت زرعاً ولا شبه زرع، والهواء ذاته يخلو من كل ذات جناح، كأن الطيور قد نفرت من رائحة القار والكبريت، التي كانت تبعثها الشمس المحرقة من مياه البحيرة، فتنتشر في سحاب متكاثف كثيراً ما ينعقد على شكل الميازيب، كما كانت كسف من المادة الكبريتية الغرينية، التي تعرف بالنفط، تطفو مسترخية فوق الأمواج الهادئة الموحشة، وتمتلك تلك السحب المتدفة بأخرة جديدة، فتشهد شهادة قوية على صدق قصة موسى. على هذا المكان المهجور أشرقت الشمس تتوهج توهجاً لا يكاد يحتمل، وكأن كل كائن حي قد توارى عن أشعتها.⁷

منظر لباس الفارس

وكان لباس هذا الفارس الراكب ومعدات جواده لا تليق ألبتة بالمسافر في مثل تلك البلاد. كان يرتدي سترة من حلق الحديد، طويلة أكمامها، وفقاذا براقا، وصدرة من الحديد الصلب؛ ولم يكتف بهذا التسليح، بل كان يعلق كذلك على رقبته درعا ثلاثياً، ويحمل على رأسه خوذة من قضبان الصلب. يغطيها بقلنسوة وبتيقة من الحديد، يلف بها حلقه وكتفيه، وتشغل ما بين لباس رأسه وسترته؛ وكان يستر أطرافه السفلي، كان يستر حذعه، بحلق من الحديد سهل الالتواء، وهكذا كان بقي ساقيه وفخذه، بينما كان يلبس على قدميه حذاء من المعدن اللامع، ينسجم في شكله، وعلى أحد جانبيه سيف طويل عريض. مستقيم ذو حدين، له مقبض الصليب، يتسق وخنجرًا غليظاً على جنبه الآخر؛ وكان هذا الفارس كذلك رمحاً طويلاً، رأسه من الصلب، يرتكز على سرجه، ويستقر أحد على ركابه،

وهذا الرمح هو سلاحه السديد، يهزه إلى الخلف وهو ممتط صهوة الجواد، فيعرض العلم الصغير المعلق بطرفه، ويرفرف العلم مع النسيم العليل، يتدلي في السكون المميت؛ وفوق هذا الزي العسكري العقد، كان صاحبنا يرتدي عباءة من القماش المزركش، نحل وبرها وبدت عليها آثار القدم، ولكنها كانت مع ذلك عظيمة النفع، إذ كانت تحمي سلاحه من أشعة الشمس، ولولا ذلك لشق عليه حمل السلاح من حرارة الشمس؛ وفي هذه العباءة كان الفارس يعلق هنا وهناك أسلحة تشوه ظاهرها، ومنها سلاح "النمر الرابض" عليه هذا الشعار. أما خوذته الاسطوانية الثقيلة فكان سطحها مستويا، لا يجمّله زخرف أو ريش، وكأن الصليبيين من أهل الشمال باحتفاظهم بهذا السلاح القوي يدفعون به عن أنفسهم كانوا يتحدون طبيعة المناخ والإقليم الذي جاؤا ينشبون فيه القتال.

الأحداث في الرواية

ترك حراسة العلم

ففى منتصف الليل، والقمر فى كبد السماء يتلألأ ضياء، كان الكنت الاسكتلندى واقفا فوق قنة جبل سنت جورج، إلى جوار راية انجلترا يخفها منعزلا نائيا، ويحمى رمز تلك الأمة من أية اهانة قد تلعب برأس واحد من تلك الألوف التى خيرها رتشارد بكبريائه أعداء له. ودارت برأس هد المقاتل خطير الفكر واحدة تلو الأخرى. قد من عليه رتشارد وميزه لحراسة رايته فقال له رتشارد: "هناك ترى لواء انجلترا مرفوعاً هلا عنيت برقايتة كما يعنى الناشئ بسلاحة عشية اليوم الذى يحرز فيه شروف الفرسية لا تتعد عنه اكثر من طول ثلاثة رماح ، وادفع عنه بجمسك أي أذى او إهانة - لو هاجمك ثلاثة رجال أن فانفخ في البوق، فهل تقوم بهذه المهمة؟" فقال كنت: لأقومن بها عن رغبة، ولئن قصرت فى ادايتها لحياتى قصابى وسوف امتشق سلاحى وأعود فوراً إلى هنا" فى اثناء ذلك الحراسة قد احس السير كنت بأن شيئاً يزحف قدما على جانب الجبل الظليل، فقال كنت: "من السائر هناك؟" فأجبه صوت خشن يعافه السع: "باسم "مارلين" و"موجيس" قيد أقدام مارك⁸، والا فلن آتيك.

فقال السير كنت، ولم يستطع أن يتبين له شكلاً أو هيئة، "ومن عسى أن تكون أيها الدائن من منصبى - حذار ! حذار !- إنما أنا هنا للموت أو الحياة". فرد عليه الصوت قائلاً: "أبعد مخالبا شيطانك الطويلة، والا فسأرميه بسهم من قوسى" فاجاب الأستكتلندى: "أقم قوسك ولا تثنها وتعال فى ضوء القمر، وإلا فبحق القديس اندراوس لاطرحنك أرضاً، وكن ما شئت أم من شئت!". وأمسك برمحه من وسطه وهو يتكلم، ودنا ببصره نحو ذلك الجسم الذى كان كأنه يتحرك وهز بسلاحه كأنه يفكر فى قذفه من يده، ولكن السر كنت استعى من مقصده. فرمى بسلاحه أرضاً حينما أقبل من الظلام إلى

ضوء القمر مخلوق مقعد عاجز، وكأنه ممثل قد أقبل على المسرح، ولما يزل بعيداً عنه، أنه ذكر القزمين اللذين رأهما في معبد (عين جده)؛ وفي تلك اللحظة عينها عادت إلى ذاكرته المشاهد الأخرى التي رآها في تلك الليلة الفريدة، وهي تختلف جد الاختلاف عن هذا القزم في مرآها، وأوماً إلى كلبه بإشارة أدركها الكلب في الحين، فأوى إلى العلم ورقد إلى جواره وهو يدمدم بصوت مختنق. هذه الصورة الإنسانية الصغيرة المشوهة⁹، بعد ما أيقنت من سلامتها من هذا العدو المخيف، أقبلت تعصد الجبل وهي تلهث من الإعياء؛ وكان الصمود شاقاً على ساقيه القصيرتين، ولما بلغ مستوى القمة، نقل إلى يسراه القوس الصغيرة، وهي أشبه باللعبة التي كان يسمح للأطفال في ذلك الأوان أن يصيدوا بها صغار الطير، ووقف موقف الكرامة والاعتزاز بالنفس، وقال: "أها الجندي، لماذا لا تؤدي إلى "نكتابانس" الولاء الواجب لكرامته؟ أو قد نسيت؟". فأجاب الفارس "أى نكتابانس العظيم، إن هذا عسير على كل من وقعت عليك عيناه؛ وإنى لأسألك العفو، إذ أنى كجندى أودى واجبي ورمحي بيدي ليس لي أن أسمح لرجل من شا كلتك أن يدنو من مكان حراستي، أو أن يسيطر على سلاحى، وحنشيك أنى احترام كرامتك، وأخضع لك خاشعاً على قدر ما يستطيع جندى في مكاني أن يخضع". فقال نكتابانس: "حسبي هذا، إن كنت بعد قليل تصحبنى إلى خضرة أولئك الذين بعثوا بي إلى هنا كي أستدعيك". فأجاب الفارس: "سيدى العظيم، لا أستطيع في هذا الأمر كذلك أن أصدع بما تريد، فلقد أمرت أن ألزم هذه الراية حتى مطلع الفجر ولذا فإنى ألتمس منك أن تعذرني في هذا الشأن كذلك". وبعد ما أتم كنه حديثه، وضع بين يدي الفارس خاتماً من ياقوت، فاستطاع الرجل أن يتعرف في لمحة حتى في ضياء القمر أنه ذلك الذى يتحلى به عادة إصبع السيدة ذات الأصل الكريم، التى كرس نفسه لخدمتها. ولو كان له أن يرتاب في صدق الشارة لاستيقن من الوشاح الصغير العقود ذى اللون القرنفلي، الذى كان مربوطاً إلى الخاتم. فحقد الفارس في الخاتم، كأنه يريد أن يتثبت أن ليس بالشارة أثر من زيف أو هتان، ثم قال للقزم: "هل سأمثل طويلاً هناك؟". فأجاب نكتابانس بأسلوبه الطائش وقال: "طويلاً! ماذا تعنى بقولك طويلاً إنى لا أدرك للزمن معنى ولا أحس به، إن هي إلا كلمة مهمة ما الزمن إى أنفاس متلاحقة نقيسها ليلاً برنين الأجراس ونهاراً بظل المزولة. هلا عرفت أن الوقت للفارس الحق ينبغى ألا يقاس إلا بما يؤدي من عمل في سبيل الله وفي سبيل سيدته؟".

فقال الفارس: "حقاً إنها لكلمة الصدق من فم الطائش الأرض الأرعن، ولكن هل تستدعيني سيدتى حقاً كي أقوم بعمل ذى بال باسمها وفي سبيلها؟ وهلا يمكن أن نستأخره بضع ساعات حتى ينبثق النهار؟". فقال القزم: "إنها تريد منك المثول تواءً وبأسرع مما تتسرب عشر حبات من رمال مقياس

الزمن¹⁰؛ استمع إلى أيها الفارس المرتاب ذو الدم البارد، هذى هي كلماتها لفضة: قل له إن اليد التي يتساقط منها الورد في وسعها أن تضفر الأكاليل". هذا الإلماع إلى لقاءها بمعبد (عين جدة) أثار في ذهن السيركنث ألوف الذِّكْر، وأقنعه بأن الرسالة التي بلغه إياها القزم صادقة لا غبار عليها، وكانت براعم الزهر رغم ذبولها لما تزل مكنوزة تحت درعه، وأقرب ما تكون إلى قلبه، فوقف الفارس قليلا ولم يستطع أن يعتزم عزمة قوية على أن يدع هذه الفرصة وهي الفريدة التي ربما تعرض له حياته، ويفوز فيها بالرضا في عيني تلك التي ولاها ملكة على قلبه وفي ذلك الحين زاده القزم ارتبكا بأن كرر عليه القول، وعرض عليه إما أن يرد الخاتم أو يتبعه على الفور. فقال الفارس: "مهلا، مهلا. تريت لحظة واحدة". ثم واصل الكلام وهو يدمدم ويقول: "هل أنا للملك رتشارد تابع أو رقيق على من الواجبات أكثر مما على الفارس الحريقسم على خدمة الحرب الصليبية؟ ومن عساني قد أتيت من أجله هنا لأرفع من شرفه بالرمح والسيف؟ إنما أتيت لغرضنا القدس والسيدتي البارعة!". صاح به القزم جزعا وهو يقول: "الخاتم! الخاتم! أيها الفارس الخائن المتوافي. رد إلى الخاتم فلست جديرا بمسه أو بالنظر إليه". فقال السيركنث: "أمهلني لحظة. برهة واحدة يانكتبانس الكريم. لاتزعج خواطري هب أن الأعراب يوشكون أن ينقضوا على صفوفنا، أألثب هنا كتابع أقسم الولاء لإنجلترا، وأسمعى على أن لا يلين كبرياء، مليكها لذلة أو خضوع، أم أسارع إلى الحنث في اليمين وأقاتل من أجل الصليب؟ كلا، بل إلى الحنث، وليس بعد سبيل الله إلا ما تأمرني به حبيبتي سيدة قلبي ولكن ما الرأي في مشيئة قلب الأسد والوعد الذي أخذت على نفسي! أي نكتبانس، إني أنا ذك مرة أخرى أن تقول لي هل أنت سائر بعيدا عن هنا؟". فأجاب نكتبانس وقال: "كلا، بل إلى ذلك السرادق؛ وأنت لا ريب ترى القمر يتلألأ فوق القبة الوشاة بالذهب، التي تتوج أعلاه، والتي تستحق فداء المليك". فقال الفارس وقد تملكه اليأس، وأغمض عينيه عن كل ما قد ينجم بعد ذلك من نتائج: "إني أستطيع أن أعود بعد لحظة، وإني أستطيع أن أستمع من هناك لنباح الكلب لو اقترب من العلم إنسان لسوف أرتهى لدى قدمي سيدتي وأستأذنها في العود كي أتم رقابتي أسمعته يا رزوال؟" (ونادى كلبه وطرح عباءته إلى جوار رمح العلم) "راقب هذا المكان، ولا تسمح لأحد أن يقترب".

فحدق الكلب المهيب في وجه صاحبه، كأنه يؤكد له أنه فهم ما عهد به إليه، ثم جلس إلى جانب العباءة، وأذناه مستقيمتان، ورأسه مرفوع كأنه حارس يدرك تمام الإدراك الغرض الذي استقر من أجله هناك.

فقال نكتابونس "إنما أنت تثب كما تثب النعامة في الصحراء.وبات يسير كما تسير القوقعة-ولما بلغا ذلك المكان رفع القزم جانب الخيمة الأسفل من الأرض، وأشار إلى السركنت أن يتسرب إلى داخل الفسطاط زاحفا تحته، فتردد الفارس قليلا، إذ لم يكن من اللياقة في شئ أن يتسرب خفية إلى داخل السرادق الذي ضرب بغير ريب لإيواء كرائم السيدات، ولكنه تذكر الشارات الأكيدة التي عرضها عليه القزم، واستقر به الرأي على الأ يجادل في رغبات سيدته.وعلى ذلك طأطأ الرأس، وزحف تحت السور الذي كان يحوط الفسطاط، وسمع القزم يهمس من الخارج ويقول: "إلبث هنا حتى أناديك".

شخصيات الأساسية:

السركنت:

هذه شخصية خيالية. لقبه فارس النمر وهو من مواليد اسكتلندا.كان الفرنسي رجلاً قوياً، شعره أحمر اللون، بدا لما رفع خوذته عن رأسه مجعداً كشفاً غريباً. وما تنم عنه عيناه الزرقاوان المنفرجتان ولون شعره وشاربه الذي كان يظل شفته العليا، ولم تكن له لحية على مثال النورمان، أنفه إغريقي جميل الصورة، وثغره واسع الانفراج يكشف عن أسنان ناصعة البياض، متينة جميلة الترتيب، له رأس صغيريرتك فوق رقبته في أنفة وعظمة. ولا يزيد عن الثلاثين في عمره وكان طويل القامة، قوي البنية، كأنه من هواة الرياضة البدنية¹¹. واذ اعظام معصمية قوية كبيرة، وذراعاها مفتولتا العضلات جميلتا التكوين، يتميز في كلامه وحركاته بعنف حربي واستهتار و صراحة في التعبير، في صوته رنة الأمر لا ذلة الخاضع، وكأنه تعود أن يعتبر عن عواطفه بصوت مرتفع وبأس شديد كلما افتضت الضرورة أن يفصح عنها¹². ولها دورة مهمة إلى آخر الرواية.

(شيركوه)

الأمير العربي

في الرواية له دورة مهمة. ففي ابتداء الرواية السركنت وأمير العربي كانتا عدوان ولكن بعد قليل صارا صديقان حميمان. وهذه شخصية حقيقة¹³ قامت فوق متوسط الرجال ولكنه أقصر من الفارس الأوروبي بما لا يقل عن ثلاث بوصات، إذ كان هذا الأخير يقرب أن يكون عملاقاً، أطرافه دقيقة. ويداه وذراعاها طويلة رقيقة تتسق حجما وجسمه وتناسب وطلعته، ولكنها لا تدل لأول وهلة على القوة والليونة، ولكن إن امعنت في النظر رأيت ما بدا من أطرافه خفيفا لا يكسوه لحم وكأنه لم يبق منه إلا عظام وعضل مفتول وعروق، رجل كأن الله قد أعده بهيئته هذه للعناء والإجهاد، ليس ألبتة بالفارس البدين تتعادل قوته وحجمه مع وزنه وقد انهكه الإغناء؛ وكان هذا العربي بطبيعة الحال يشبه في

طلعته إجمالاً قبائل الشرق التي هو من أبنائها، وكان دقيق الملامح، جميل التكوين، دقيقاً، تعلوه سمرة شديدة من أثر الشمس المحرقة، له لحية مرسله سوداء متموجة الشعر، عني بتشذيب اطرافها، وأنف مستو مستقيم، وعينان جادتان، سوداوان براقتان، واسنانه تنافس في جمالها وبياضها عاج الصحراء، وقصارى الوصف، كان العربي وهو يتمطي بجسمه فوق العشب،¹⁴ إذا قيس بمنازله القوي البنية كمهنده البراق ذى الشكل الهلالي والحد الضيق الرقيق، اللامع الدمشقي الباتر، إذا قورة بالسيف الطويل القوطي الثقيل، الذي خلعه صاحبه وألقاه فوق الأديم، وكان الأمير في زهرة العمر، ولولا ضيق جهته ورقة ملامحه وجدتها - أو لعلها كانت كذلك من حيث تقدير الأوروبيين للجمال - لعد آية في الجمال. اسمه ضريم ولقبه شيركوه (اسد الجبال).

أديث (بلانتجنت)

هذه شخصية خيالية¹⁵ كانت فتاة قريبة الصلة بعرش انجلترا، يحتم عليها كرم الأصل وعزة النفس أن تكتفى بالولاء والإخلاص يظهرهما لها دوماً. وهي ذات الميول النبيلة الشريفة. وأديث إن يكن جرى فيها دم الملوك. إلا إنها ليست من بنات الملوك. لها دورة مهمة في الرواية. وهي تحب لسر كنت حبا جما وفي اخر الرواية تزوجت مع سر كنت. إنها يتيمة الأبوين ويطلق عليها اسم بلا نتاجنت، وفتاة انجو الحسناء ولئن كان رتشارد قد أذن لها أن تستمتع ببعض المزايا مما لا يمنح إلا لأعضاء الملكة إلا أنه رغم ذلك قل من كان يعرف على أية درجة من صلة الرحم هي من قلب الأسد.¹⁶

توماس دي فو

هو في محياه وهيئته ومسلكه أشد ما يكون تباينا للملك المريض (رتشارد) هو كالعلاق في قوامه، ويكاد شعره يشبه في كثافته شعر شمشون بطل الإسرائيليين¹⁷ بعد ما جزه الفلسطينيون، لأن دي فو قد قصص شعره حتى يستطيع أن يضمه تحت خوذته، وله عينان كبيرتان واسعتان لونهما كاللون البندق، يشع منهما ضياء كضياء الخريف في الصباح،¹⁸ وملامحه قوية غليظة، فيها جمال وجاذبية. كان السر توماس لورد جزلاند، في كمبرلاند، وكان النورمان يسمونه لورد دي فو، ويلقبه بالانجليزية السكسون. وفي الرواية دروته أنه طبيب لرتشارد. وقد تدرب هذا الزعيم في أكثر الحروب، ما نشب منها بين انجلترا واسكتلندا، وفي هذا الحروب جميعاً برز وتفوق، وكان من ناحية أخرى جنديا خشنا فظا، لايأبه بهندامه، كتوماً مكبئاً في معاشرته.¹⁹ وشواربه كشف يغطي شفته العليا. على الطراز - النور ماندى - اختلط منم غزارته طوله بشعر رأسه - تخططه قليل من الشعرات البيض، فلقد كان

نحيل الخصر، عريض الصدر، طويل الذراع، عميق الانفاس، قوي الأطراف وهي تباين عاداته وأخلاقه العسكرية الصريحة أشد المبانية.²⁰

حكيم أدنك

هذه شخصية خيالية. ذكر والتر سكوت أن القصة في روايته أن صلاح الدين قد أتى لعلاج رتشارد وغير شكله لئن لا يعرفه أحد وعالج رتشارد بالطلسم. أن الحكيم في الحقيقة هو صلاح الدين ولكن لم يوجد في كتب التاريخ هذه القصة.

رئيس رجال المعبد

كان رئيس رجال المعبد الشهير رجلاً طويلاً نحيلاً. برته الحروب، نظراته وثيدة إلا أنها نافذة. وله حاجبان طبعتهما عليهما اللون دسائس المظلمة لمحة من خفائها ودجنتها. وكان الرئيس مرتدياً ثياباً بيضاء تكسبه وقاراً، ويحمل في يده عصا الحكم السحرية.²¹

كنراد منتسرا

كان منتسرا رجلاً مليح الوجه، في شرح الشباب أو جاوزه قليلاً إلى الكهولة، جريئاً في القتال، حكيماً في المشورة، مرحاً جذلاً في أوقات اللهو والسرور، إلا إنه كثيراً ما كان يتهم بالتلون وبالإطماع الذاتية الضيقة، وبرغبته في مد إمارته دون اعتبار الخير للمملكة اللاتينية في فلسطين وبسعيه وراء صالحه الذاتي بإجراء المفاوضات الخاصة مع صلاح الدين معتدياً بذلك على حقوق الحلفاء المسيحيين.²²

ليوبولد دوق النمسا

ارتفع ليوبولد في الإمبراطورية الألمانية إلى المرتبة الدوق لصلته رحم قريبة بينه وبين الإمبراطور هنري الحازم الشديد، وقد تلوث اسمه في التاريخ بسبب فعلة شنعاء، كان فيها ختال منه، نشأت عن هذه الحروب في الأرض المقدسة، وذلك هو العار الذي ارتكبه حينما زج برتشارد في السجن وهو عائد خلال أملاكه متخفياً لاتباعه حاشية، ومع ذلك فإن هذا العمل لم يصدر عن سجية ليوبولد وطبيعته، فلقد كان أميراً إلى الضعف والعبث أقرب منه إلى الطموح والجور، وهو في قواه العقلية أشبه بصفاته الشخصية؛ كان طويل القامة، قوي البنية، تظهر على الحمر والبياض على أشد تباين، وله شعراً شقر جميل تتدلى منه خصلات طويلة متهدلة، وكان يرتدى ثياباً فاخرة وكأنها لا تنجسم عليه، وكان يبدو عليه أنه لم يألّف كثيراً أن يحتفظ بكرامته كأمر نبيل.²³

نديم الأرشوق

كان لأرشدون عدة ندماء ومن أحدهم يحب الأرشدوق. لم يذكر الروائي اسمه بل ذكر صفاته فقط. كان هذا النديم فاخر الثياب، يرتدى عباءة وصورة من المخمل الأسود والصدرة مزركشة بقطع نقدية مختلفة من فضة وذهب، هيكت بها ذكرى الأمراء الأسخياء الذين وهبوا إياه، ويحمل عصا قصيرة تتعلق بها كذلك باقات من النقد في حلق يجعله كي يجذب إليه الأنظار حينما يهم بأن يقول شيئاً يكون في ظنه جيداً بالالتفات، ولهذا الرجل من النفوذ بين حاشية الأشدوق شيئاً بين ما للمنشد والمستثار، هو مرة مداهن ومرة خطيب أو شاعر، وكل من أراد أن يتقرب إلى الدوق كان يسعى لكسب رضا هذا النديم.²⁴

برنجاريا

هي زوجة رتشارد وابنة (سانشز) ملك نافار كانت العريقة النسب، وهي ملكة حليلة وتعد من اجمل نسوة في زمانها قدّها نحيل، وجسمها بارع الجمال في صورته، حباها الله لبشرة غير مألوفة بين بنات جلدتها، ولها شعر كث يضرب إلى الصفرة، وملامحها غاية في نضرة الشباب، حتى إنها لتبدو للعيان أصغر من حقيقتها بسنوات عدة، وإن تكن في الواقع لما تعد الحادية والعشرين، ولربما كان احساسها لمظهرها هذا البالغ في حداته، باعثاً لها على أن تصطنع، أو أن تقوم على الأقل، بقليل من أعمال الصبانية وصلابة الرأي في سلوكها.²⁵

رتشارد

هذه شخصية حقيقية.²⁶ ذات يوم في سوريا، استلقى رتشارد على فراش المرض، والفراش إلى نفسه بغيض، والمرض على جسمه شاق ثقيل، وعيناه الزرقاوان اللامعتان – اللتان لم ينقطع لهما من قبل ضياء لامع ولا بهجة متألثة – فيها حيوية زادت منها الحمى وقواها الجزع، وقد أطلتا من خلال تجاعيد شعره الأصفر الطويل وخصله المسترسلة، بنظرات زاهية منقطعة كخيوط النور ترسلها الشمس ساعة الغروب فتشق السحب التي تزجها العواصف المطيرة، والتي يوشى حواشيها بالذهب – رغم ذلك – ضياء الشمس اللامع، ويبدو على ملامحه المسترجلة سير المرض العضال وقد أحمل لحيته ولم يشذ بها، فنمت وطغت على شفثيه وذقنة.

القزم نكتابونس

يدعى أنه الإمام الثاني عشر وأنه هو محمد المهدي زعيم المؤمنين ورائدهم وهو ذو رأس كبير، عليه غطاء مزين بثلاث ريشات من ريش الطاؤوس زينة رائعة جميلة، يرتدى ثوباً من الحرير النفيس الأحمر الموشى بالذهب ويتشح بوشاح من الحرير الأبيض يعلق به خنجراً ذا مقبض ذهبي.²⁷

الحوار في الرواية

حوار بين سركنث وأمير العربي

أيها النصراني الجسور! هل يليق بالمرء يقاتل كالرجال أن يكون حين تناول الطام كالكلاب أو الذئاب؟ والله إنى لأظن أنه حتى اليهودى الكافر ليقشعر بدنه إذا رآك وأنت تأكل بشهية كأنك تتناول من ثمر أشجار الجنة". فالتفت المسيحي متعجباً من تلك التهمة التي ألقيت عليه دون أن يترقبها، ثم قال: "أيها الغربي الجسور! أعلم أنى إنما أستمتع بالحرية المسيحية، وأن لى أن آتى ما لم يستطعه اليهود الذين يرزحون تحت نبرملة موسى البالية، ولتعلم أيها العربي أننا نخضع لشريعة سامية؛ حياك الله يا مريم! إنا لله شاكرون!" واختتم حديثه بعبارة لاتينية قصيرة، ثم احتسى حرة كبيرة من القنينة الجلدية كأنه يتحدى ما يساور زميله من وسواس. فقال العربي: "أفهدا أيضاً في اعتبارك جزء من حريتك؟ إنك إذ تطعم كالحوش الضواري، وإذ تحتسى هذا الشراب السام، الذى تأباه الهائم، إنما تهبط بنفسك إلى حضيبض الحيوان". فأجاب المسيحي دون تردد: "أعلم أيها العربي الغافل أنك إنما تلعن ما أسبغ الله علينا من نعم. إن عصير العنب حلال لمن كان حكيماً في تناوله، فهو ينعش القلب بعد عناء العمل، ويرطب فؤاد المرء في مرضه، ويخفف عنه وطأة الحزن. من يستمتع بالخمير بحمد ربه على الكأس كما يحمده على قوت يومه، ومن يدمن في الشراب فليس في إدمانه بأقل منك غفلة في تحريمك الخمر".

فقال: "والله أيها النصراني إن كلماتك هذه لتبعث الغضب، لولا أنك بجهالتك تستثير الرحمة: أفلا ترى - وكيف ترى وأنت أشد عى من أولئك الذين يقفون بأبواب المساجد يسألون الصدقات - أن هذه الحرية التى تفخر بها لم تمتد إلى بيتك وإلى أنفس ما فى سعادة الإنسان، فإن شريعتكم - إذا اتبعتموها - فرضت على الرجل منكم أن لا ينكح غير زوجة واحدة، يرتبط بها فى صحتها وفى مرضها، ولوداً كانت أو عاقراً، وسواء فاضت على مأكله ومبيته بالدعة والسرور أو بالمنازعة والشحناء؛ تالله إن هذا أيها النصراني إلا الرق عينه، أنظر إلى دين المسلمين! لقد جاء النبي للمؤمنين فى الأرض بملة أبينا إبراهيم القديمة وملة سليمان أحكم بنى الإنسان فأحل لنا فى الدنيا تعدد النساء الجميلات كيفما شئنا، ووعدنا فى الآخرة بالحوار العين". فأجاب المسيحي وقال: "والذى أقدس فى السماء فوق كل شئ، وبالتى أعبد فى الأرض أكثر من كل شئ، إن أنت إلا كافر عميت بصيرته وضل هداه - أنظر إلى جوهرة هذا الخاتم الذى تلبس فى إصبعك؛ أى تظن أن قيمتها تفوق كل تقدير؟". فأجاب العربي: "أجل، وليس فى البصرة أو بغداد ما يشمها، ولكن ما شأن هذه الجوهرة وما نحن فيه؟". فأجاب الفرنجى: "شأنها كبير، وستشهد بذلك أنت نفسك الآن. خذ فأسى هذه وهشم هذا الحجر الكريم إلى

عشرين شظية ، ثم خبرني إن كنت تظن أن لكل شظية وحدها ما كان للجوهرة بأسرها من قيمة، أو أن الشظايا كلها مجتمعة لها عشر ما كان لها من ثمن؟". فقال العربي: "هذا سؤال صبياني. إن جزئيات هذا الحجر لن تعادل عشر معشار الجواهر سليما" فأجاب الفارس المسيحي: "كذلك ، أيها العربي، الحب الذي يحمله الفارس الحق لامرأة واحدة جميلة مخلصه، هو كهذه اللؤلؤة سليمة، أما الحب الذي توزعه بين أزواجك الأثى تستعبدهن، وإمائك اللائى تنظر إليهن كأنصاف أزواج، فما هو إلا بمثابة تلك الشظايا المتفرقة من هذا الجواهر الحر". فقال الأمير: "ورب الكعبة المقدسة إنك لمجنون، لا تفرق بين الذهب والحديد، أومن في النظر تجد أن هذه الجوهرة الكبرى وسط تلك اللآلئ الزرية هي التي تكسب الخاتم جلاله وتعطيه قيمته، ولولاها لما كان له نصف جماله ؛ هذا الجواهر الأوسط هو الرجل في عزمه وكماله ، لا يستمد قيمته إلا من نفسه، وأما هذه الحلقة من الجواهر الدنيا فهي النساء تستعد بريقتها من بريقه ، يرسله عليهن كما يشاء ويهوى ؛ انزع الحجر الأوسط من الخاتم ببق له قدره ويهبط ما دونه من اللآلئ في قيمته ؛ وإنما هكذا يجب أن تفهم التشبيه الذي أتيت به. ولقد قال المنصور الشاعر ما معناه: "إنما جمال المرأة ورقفتها من فضل الرجل، فلولا ضياء الشمس ما تألق في البحار ماء".

فأجاب الصليبي قائلاً: "أيها العربي، إنك إنما تتكلم كرجل لم يقع بصره يوماً على امرأة جديدة بحب أبناء الحروب، صدقتي أنك لو شهدت بنات أوروبا - اللائى لهن علينا بعد الله حق الإخلاص والولاء - لما بقى في قلبك ذرة من حب لهاتيك الشهويات المسكينات اللائى يتألف منهن "حريمك". إن جمال نساننا يدب حراينا ويحد سيوفنا؛ كلمنهن لنا شريعة ؛ وكما أن المصباح لا يثير إذا أنطفأ لهيبه، فكذلك الفارس إذا برزق القتال ولم تكن له فتاة يولمها حبه". قال الأمير: "لقد نما إلى هذا الجبل الذي يعتور فرسان الغرب، وكنت دائماً أعده عرضاً من أعراض ذلك الجنون الذي يدفعكم إلى هذه البلاد كي تستولوا على قبر أجوف، ولكنى - مع ذلك - من فرط ما سمعت من الفرنجة الذين التقيت بهم من الثناء يكيلونه كيلا على نساءهم ، أود لو رأيت بعيني رأسى أولئك الساحرات الفاتنات اللائى يجعلن من هؤلاء المحاربين أدوات لما يردن ، كي تطمئن نفسى ويرضى فؤادى". فأجاب الفارس: "أيها العربي الجسور، والله لولا أنى أقصد الحج إلى القبر المقدس لكان فخراً لى أن أقودك آمناً إلى مخيم رتشارد ملك انجلترا ، الذى يعرف أكثر من كل من عداء كيف يعامل بالحسنى عدوا كريماً ؛ وإنك قد ترانى مسكيناً لا تكلانى عين برعاية، ولكنى مع ذلك قمين بأن أكفل لك، ولأمثالك، كل أمن وتقدير وإجلال. هنالك ترى كثيراً من آيات الجمال الفرنسى والإنجليزى مجتمعات في حلقة صغيرة، يشع منها نور يفوق

في بريقه ولمعانه المناجم المترعة بمثل تلك اللآلئ التي تملك عشرين ألف مرة". فقال العربي: "وركن الكعبة، لو أنك بقيت على عهدك لألبين دعوتك طائعا، كما وهبتنيها طائعا، وصدقني، أيها النصراني الجسور، لقد كان خيرا لك أن تيمم جوادك شكر مخيم قومك، فإن مسيرك إلى بيت المقدس بغير جواز إن هو إلا تعريض بحياتك لا مبرر له". فأخرج الفارس ورقة ثم قال: "ها هو ذا جوازي عليه توقيع من صلاح الدين بيده وخاتمه".

حوار ما بين رتشارد وملك صلاح الدين أيوبي

وقال: "إن صلاح الدين يرحب بالملك رتشارد كما يرحب بالماء لهذه الصحراء! وإنى على يقين من أنه لا يرتاب في هذا العدد العديد من الجنود، فإذا استثنيت العبيد المسلحين من حاشيتي، فإن أولئك الذين يحيطونك ينظرات من العجب والترحاب هم جميعاً - حتى أكثرهم خضوعاً - من النبلاء ذوى المكانة في القبائل الألف التي تتبعني؛ إذ من ذا الذى يكون له حق المثل ويلبث في بيته، والأمير القادم رتشارد، وهو الذى بمخاوف اسمه - حتى فوق رمال اليمن - تدلل المرضعة الوليد ويخضع العربي جواده الجموح!". فأجاب رتشارد وقال: "وكل هؤلاء نبلاء من الأعراب؟" وتلفت حوالياً، ووقع بصره على جسوم خشنة، ورجال متلفعين بالثياب، أسودت من حرارة الشمس ملامحهم، وأسنانهم بيضاء كالعاج، وعيونهم السود يتألق فيها بريق نافذ غير طبيعي تحت ظلال عمائمهم، ولباسهم على الجملة ساذج بل وضيع. فقال السلطان: "أجل إن لهم لهذه المرتبة، وهم وإن يكونو عديدين إلا أنهم يخضعون لشروط المعاهدة، ولا يحملون سلاحاً غير السيوف - وحتى حديد رماحهم قد خلفوه وراءهم". تعتم دى فو بالإنجليزية قائلاً: "إنى أخشى أن يكونوا قد خلفوه حيث يتيسر لهم إن أرادوه سريعاً - إنى أقر بأنهم مجلس من الشيوخ جليل، وربما ضاقت بهم قاعة وستمنستر". وقال رتشارد: "صه يا دى فو - إنى أمرك بالصمت" ثم قال: "أيها السلطان إنك والشك لا توجدان على أرض واحدة" وأشار إلى المحفات وقال: ألا ترى أنى كذلك قد أتيت معى ببعض الأبطال، ولكنهم مسلحين؛ ولربما كان في ذلك إخلال بالاتفاق؛ ولكن العيون النجل، والملاح الفاتنة، أسلحة لا تستطيع أن نخلفها وراءنا". التفت السلطان نحو المحفات، وطأ رأسه إجلالاً كأنه يولى وجهه شطر مكة، ولثم الرمال إشارة على الاحترام والتبجيل. وقال رتشارد: "كلا، إنهن يا أخى لا يخشين لقاء أقرب من هذا. هلا ركبت صوت محفاتهن، وسترفع الستر بعد زمن وجيز؟". فقال صلاح الدين: "حرام على هذا! وليس للعربي أن ينظر إلى النساء، وعار على السيدات النبيلات أن يبدين وجوههن بغير قناع". فأجاب رتشارد: "إذن لتراهن في خلوة يا أخى المليك". فأجابه صلاح الدين محزوناً وقال: "لم أراهن؟ لقد كانت رسالتك الأخيرة لآمالى التي أشدت

كالماء للنار، فما لي بعد هذا أشعل لهيباً قد يحرق قلبي ولا يدخل السرور على نفسي؟ - ولكن هلا سار أخي إلى الفسطاط الذي أعده له خادمه؟ إن عبدى الأسود الخاص قد تلقى الأمر للقاء الأميرات - وسوف يستقبل الضباط من حاشيتي تابعيك، وسأقف بنفسى على خدمة رتشارد المليك".

اسلوب التشبيه في رواية

- كان عيونها قد حيكت من نسيج العنكبوت.²⁸
- كأنه ولد على جناح نسر.²⁹
- كأنه يريد أن يغرسها في باطن الأرض كجذور النخيل.³⁰
- كالماء غير المستقل.³¹
- كالصخر في صلابته.³²
- ماءه يغلى كالحميم.³³
- حين تناول الطعام كالكلاب أو الذئاب.³⁴
- انلك اذ تطعم كالوحوش الضواري.³⁵
- هو كهذه اللؤلؤة السليمة.³⁶
- أن في اعينهم بريقاً كبريق الموت.³⁷
- كأنهم صيادون في الجحيم.³⁸

أسلوب الأستعارة في الرواية

- كيف ترى وانت أشد عمي من اولئك الذين يقفون بأبواب المساجد يسألون الصدقات.³⁹
- ان البزة لا تطير في الأسراب، وإذا أقبلت سرّبا لن تنقض جماعة واحد مفرد.⁴⁰
- كل شعرة من شعراتها أنفس لديه مائة مائة مرة من سلسلة الذهب الخالص.⁴¹
- وقوداً لنار الفكرة التي يؤججها الخيال.⁴²
- ثم يلصق شفّتيه بكل صخر بارد تحدّثه نفسه أنها وطئته بقدميها.⁴³
- من ذا الذي يرقى إلى السماء بغير درج.⁴⁴
- لقد غير كلاب الجزيرة هؤلاء من روحهم الطروب.⁴⁵
- هذه الكلاب الجسمة من أمة مخلصه أمينة.⁴⁶
- صدقنى إن نسيج العنكبوت الايطالي هذا الذى نسجتى لن يقيد شمشون الجزيرة هذا الذى لم يقص شعره بعد.⁴⁷

أقوال الحكمة في الرواية

- ولكن حذار أن نتحرش بكف الأسد. استمع إلي، إنك إن شغفت بالقمر حباً فلقد أتيت امرأً
إدأً، وإنك إن قفرت من أسوار برج شاهق أملاء في الدنو من هالته فلقد هلكت رعونة ونزقا.⁴⁸
- إنما ليت ولكن من كلمات الحمقى الأغبياء ولكن الحكماء العقلاء لا يترددون ولا يتراجعون –
إنهم إذا قالوا فعلوا.⁴⁹
- إن كان السفر امامك فليس من الحكمة أن تتطلع ورائك.⁵⁰
- إن أراد الصبي أن يسير فليسترشد بمربيته، وإن أراد الجاهل أن يفهم فعلى العاقل أن
يعلمه.⁵¹
- إن الطعام الذي تقدمه للغريب، لا يضيع، فإن اشتد به جسمه وقوى، ارتفع اسمك عزة
وشهرة.⁵²
- ان من الوان الشجاعة لونا كالبراعة، لا يظهر للعيان الا ليلاً.⁵³

اسلوب القسم في الرواية

- اقسام محمد رسول الله وبرب محمد أن ليس لك في قلبي خيانة.⁵⁴
- والذى أقدس في السماء فوق كل شيء وبالي اعبد في الأرض أكثر من كل شيء.⁵⁵
- لكني اقسام لك نبى الكريم إنك لو سقطت في أيدي هؤلاء.⁵⁶
- كلا وضيء السماء المنير.⁵⁷
- اقسام لك حقا بتاج "الايمل".⁵⁸
- كلا! ورب السموات العلى لسوف يرى المعسكر.⁵⁹
- وبروح أبي أقسم لك إن الرسالة لا تحمل بين سطورها إلا الشرف الرفيع.⁶⁰
- بحق محمد وشرف الجندية وبحرم الكعبة.⁶¹
- أقسم بالقديس جورج، أنكم لتخنقنه.⁶²

نماذج الرسائل في الرواية

رسالة من صلاح الدين الى رتشارد ملك الانجلترا "سلام الله ورسوله محمد. تحية من صلاح الدين ملك الملوك، سلطان مصر وسوريا، نور الدنيا وملاذها، إلى رتشارد العظيم ملك انجلترا، أما بعد، لقد مما إلينا، يا أخانا في الملك، أن المرض قد مد إليكم يداً ثعيلة لا تحتمل، وأن ليس لديكم من الأطباء غير النصارى واليهود، الذين يعملون بغير بركة الله ونبينا الكريم ولذا فإننا مرسلون إليكم بطبيبنا الخاص

يقوم برعاتتك، ويسهر على راحتك، وهو (أدنبك) الحكيم الذى إن رآه عزرائيل نشر جناحيه ورحل عن غرفة المريض، والذى يعلم مزايا الأعشاب والأحجار، ومسير الشمس والقمر والنجوم، وفي اسمه أن ينقذ الإنسان من كل ما لم يكتب على الجبين؛ وأنا لهذا فاعلون، متوسلين إليك من أعماق القلوب، أن تكرمه وتفيد من خذقه، وأنا لم نفعل ذلك خدمة لقدرك وشجاعتك فحسب - وهما فحو دول الفرنجة قاطبة - وإنما فعلناه كي نقضي على الخصومة القائمة بيننا الآن، إما باتفاق شريف وإما علينا بحد السيف في ساحة القتال، وذلك لأننا نرى أنه لا يليق بمكانتك وشجاعتك أن تموت ميتة العبد قد أنهكه سيده بالعمل، ولا يلائم اسمنا بين الناس أن ينتزع المرض من أسنة رماحنا خصما جريئاً مثلك إن رسول الله صلى الله عليه وسلم. "فصاح رتشارد: " كفى ، كفى، والله إنه ليضعاف من مرضى أن هذا السلطان الشجاع، صاحب المقام الرفيع، يعتقد في دين الإسلام؛ أجل سوف أرى طبيبه، وسوف أسلم نفسى لهذا الحكيم، وسوف أرد لهذا السلطان النبيل... قد وظف سكوت الأحداث الثانوية بمهارة في روايته فجاءت في مكانها محققة أغراضاً فنية ومضمونية. بينما أخفق في توظيفها فجاءت في غير مكانها دون أن تؤدي دوراً فنياً أو مضمونياً فكانت بذلك عبثاً على العمل. ينغمس سكات في الأحداث لدرجة أنه ينسى دقة التاريخ مع أنه يتجاوز مخطط الرواية وهو خطأ كبير عند النقاد. وقد توقفت بعض عند الأحداث الثانوية في رواية طلسم الذي لم يوظف بصورة جيدة كحدث القزم نكتابانوس وإمراته جنفراً إذا سألهما كنه من أن أنتما فأجاب "أنا الإمام الثاني عشر أنا محمد زعيم المؤمنين ورائدهم". فهذا الحديث كان حدثاً هامشياً لا يحمل قيمة فنية ولا مضمونية، وليس له أي علاقة أو ارتباط بأحداث الرواية. ولا بفكرتها، وأظن أن الكاتب أوردته فقط ليبين مقدار حقد المسيحيين على المسلمين أو لتحقير المسلمين وكرهيته لهم أو كراهيتهم لهم. ينقسم النقاد الأحداث الذي يبين في الرواية على قسمين: المبني الحكائي وفي مقابله المتن الحكائي. ولكي نصل إلى ذلك علينا أن نعرف الفرق بينهما. (المتن الحكائي والمبني الحكائي) في طريقة بناء الأحداث وترتيبها في التقديم والتأخير، والحذف والإضافة التي تحدث في المبني الحكائي لأغراض فنية وجمالية ومضمونية. متن الحكائي وهو القصة أو الحكاية بصورتها الأصلية ومبني الحكائي وهو القصة أو الحكاية بصورتها التي ظهرت لها في الرواية. فروانيون (باكثير وسكوت) قد الزما مبني الحكائي ولا يرويا مجموعة من الأحداث وفق ترتيب زمني سببي. الشخصيات الرئيسية هي الشخصية الأكثر بروزاً في الرواية، إذ أنها محور الرواية. أما الشخصيات الثانوية: فهي التي تؤدي دوراً ثانوياً في الرواية ويكون ظهورها على قدر دورها الذي تؤديه. ومع ذلك الشخصيات الثابتة أو المسطحة وشخصيات نامية أو متغيرة وأيضا يسمى

مستديرة ويميل النقاد إلى تفضيل الشخصيات النامية على الشخصيات الثابتة. ذكر سكوت أثناعشر شخصيات أساسية كسر كنت، رتشارد، أديث، والأمير العربي، توماس دي فو ومركز منتسرا وغير ذلك. ذكر سكوت ملامح و أوصاف الشخصيات بأسلوبه الخاص، عند ما يقرأ القارئ يراه كأن الشخصيات أمام عينيه.

النماذج

يقول عن دي فو: "هو كالعملاق في قوامه، ويكاد شعره يشبه في كثافته شعر شمشون بطل الإسرائيليين بعد ما جزه الفلسطينيون، لأن دي فو قد قصص شعره حتى يستطيع أن يضمه تحت خوذته، وله عينان كبيرتان واسعتان لونهما كاللون البندق، يشع منهما ضياء كضياء الخريف في الصباح،⁶⁴ وملامحه قوية غليظة، فيها جمال وجاذبية."

الحوار

أن الحوار لا ينبغي ألا يكون طويلاً يبلغ الصفحات وألا يكون معرضاً للأساليب البلاغية ونشاهد أثناء دراسة روايتين أن حوار الطلسم طويلاً فقد يبلغ أكثر من 16 صفحات وأيضاً حوار سيرة الشجاع طويلاً مفصلاً ولكن أقل من رواية طلسم. وللحوار أن يكون في لغة الفصيحى ومع ذلك يكون سهلاً ومفهوماً. فهذه الحوار بلغة عربية سليمة مفهومة ويودى دوراً حيوياً ومهما في الرواية.

وهذا الحوار من رواية طلسم.

يشترط النقاد في الحوار الناجح أن يكون قصيراً وعفويًا ومتوائماً مع مستوى الشخصيات المتحاورة، وألا يكون عديم الفائدة في النص، والا يطغى على السرد، لأن السرد هو الشكل المركزي في الرواية، ومن هنا فإن طول الحوار، جعله معرضاً للأساليب البلاغية والالفاظ المنتقاة لجمالها ورنين موسيقاها، وارتفاعه فوق متسوى الشخصيات المتحاورة والإكثار منه بصورة تحيد السرد فكل ذلك بعد من العيوب المخلة بفنية الحوار. ومن العيوب المخلة بفنية الحوار. طول المبالغ فيه كما ذكرت، الذي يبدو وكأنه كلام معد سلفاً، وليس وليد اللحظة، وهو أمر به النقاد إلى صورة تحاشيه، فالروائي عليه أن ينقل على وجه الحصر بالكلمات ما ننقله نحن في الحديث العادي. بيد أن نيسا الفرق بين الحوار والسرد ويشير سلان في بعض الحوارات فتتحول كالخطب كما في هذا الحوار من رواية طلسم.

مثال

"fever-fit" exclaimed Richard impetuously; "thou mayest think, and justly, that it is a fever-fit with me; with that dull Austrian, with him of Montserrat, with the Hospitallers,

with the Templars- what is it with all them? I will tell thee. It is a cold palsy, a dead lethargy, a disease that depriyes thera of speech and action, a canker that has eaten into the heart of all that is noble, and chivalrous, and virtuous among them – that has made them false to the noblest vow ever knights were sworn to – has made them indifferent to their fame, and forgetful of their God!”

“for the love of Heaven, my liege,” said de vaux, “take it less violently – you will be heard without doors, where such spccches are but too current already among the common soldiery, and engender discord and contention in the Christian host. Bethink you that your illness mars the mainspring of their enterprise; a mangonel will work without screw and leave better than the Christian host without King Richard.”

فلا أحد يمكنه؟ يتحدث في حديث عفوى بهذه الطلاقة، وأن يسترسل هكذا بلا توقف. ولذلك فان طول الحوار هنا يبدو غير طبيعي وغير منطقي حتى لو كان المتحدث قس بن ساعدة الأبادي وليس فتى تركى الأصل والتربية وقد جمع الحوار إلى طوله المبالغ فيه. تكلفا واضحا يظهر في الحرص على انتقاء الكلمات المسجوعة التي أشاعت داخل الحوار رمشيئا من الايقاع الذي لا يلائمه.

المكان

المكان في اللغة الموضع ويجمع على الأمكنة وأماكن، وقد عرفه الكفوي أنه الموضع الثابت المحسوس القابل للإدراك الحاوي للشئ المستقر. ويقصد به في الأدب الروائي المكان الذي تقع فيه أحداث وتتحرك فيه الشخصيات الروائية، وهو مكان لفظي متخيل ينتجه الحكى وتصنعه اللغة لتوازي به مكانا موجوداً في الواقع أو في خيال الكاتب.

المدينة: تعد المدينة ركيزة مكانية رئيسة في الروايتين، فذكر باكثر وسكوت في روايته المدن الكثيرة. **دمشق الشام:** البلد المشهورة قسبة الشام وهي جنة الأرض بلا خلاف لحسن عمارة ونضارة بقعة وكثرة فواكهة ونزاهة رقعة وكثرة مياه ووجود مآرب.

سمرقند: يقال لها في العربية سمران، بلد معروف و مشهور، قيل أنه من أبنية ذى القرنين بما وراء النهر وهو قسبة الصغد منية على جنوبى وادى الصغد مرتفعة عليه.

سورية: موضع بالشام بين خناصره وسليمة.

فسطاط وللعرب ست لغات في الفسطاط وأما معناه فإن الفسطاط الذي كان لعمر ابن العاص هو بيت من آدم أو شعر بعضها فتح عنوة وبعضها فتح صلحاً.

فلسطين هي آخر كور الشام من ناحية مصر قصبها البيت المقدس ومن مشهور مدنها عسقلان، الرملة، غزة، ارسوف، قيسارية، نابلس ويافا.

الأردن من الأردن إسم الكورة وأهل السير يقولون. إن الأردن وفلسطين ابنا سام بن إرم بن سام بن نوح. وهي إحدى أجناد الشام الخمسة وهي كورة واسعة منها الغور والطبرية. وصور وعكا وما بين ذلك. افتتح شرجيل بن حسنه

اصطخر النسبة إليها اصطخري، بلدة بفارس من الإقليم الثالث، وهي أعيان من حصون فارس ومدنها وكورها. قيل ، كان أول من أنشأها اصطخر بن ملهورث ملك الفرس، قال الإصطخري، أما إصطخر فمدينة هي من أقدم مدن فارس وأشهرها.

مصادقية تاريخية

علاج رتشارد

ذكر سكات أن الطبيب العربي يعالج رتشارد وهو يخفى شخصيته فبالأصل إنه هو صلاح الدين نفسه فهذا الكلام خارج العقل والقياس أن صلاح الدين عالج رتشارد ولم يعرف رتشارد عنه وأيضاً بالرغم البحث من كتب الأساسي على التأريخ لم اجد اي مصادقية عن هذه الأحداث. الكامل في التأريخ لأبن أثير ومقدمة لابن خلدون لم يذكر هذه القصة. وأيضاً لم يذكر ابن جرير الطبري.

زواج أديث مع سركنث

ذكر سكوت في روايته أن سركنث تزوج مع أديث بلا تشت فأولاً أن الكنت شخصية حقيقة واسمه إيرل هنجنت لا كنت ذكر سكوت أن اسمه داؤد إيرل. إيرل هنجنت اسم زوجته ماد أف جستر ولم تتزوج مع أديث قط فكيف يمكن هذا لأن الأديث هي شخصية خيالية.

أسلوب الفخامة

لم يكن لباس ومخيم صلاح الدين فخم كما ذكر سكوت وصلاح الدين بعمامته الناصعة، ن البياض، وصجاره وسراويله الشرقية النضاضية، ونطقة الحريري الترمزي، دونالية.بنة أخرى ربما كان أكثر من حرسه سداجة في لباسه وولكنك إن دنوت منه وأمغت فيه، رأيت في عمامته تلك الجواهر التي لا تقدير، وإلى سماها الشعراء ربحه النور واللؤلؤة المنقوشة باسمه وإلى كان يلبس في خاتمة، ربما كانت تساوى في قيمتها كل مابالتاج الإنجليزي من جواهر والياقوت الذي ينتهي به مقبض سيفه لا عنها في

قيمتها كثيراً. وقد ذكر المؤرخون وصانف صلاح الدين بالعكس فذكر وصائفه في الموسوعة " كان الملك خليفاً" بالإمارة

أحداث الرواية ومصداقية التاريخية

أحداث الرواية أكثر فيها موضوعياً واختراعياً ولم يطابق بكتب التاريخ، فأهم الأحداث لإيغار على رتشارد ولزوم نكتابونس وترك كنه حراسة العلم وجعوة أديث الكنت وأرسال الخالم علامة لما وعلاج رتشارد على يد حكيم الذي لا أصل له إلا صلاح الدين ما كشف عن رتشارد في مقابلة صلاح الدين فعالج الحكيم إسمه أدنيك هذه شخصية وهذا الأحداث خيالية قط.

دعوة الإسلام لكنث

ادّعى سكوت أن المسلم الطبيب دعا سر كنه إلى الإسلام: فقال الطبيب لا تجد فأهيا النصراني، إن الصلاح الدين لا يقبل في دين محمد إلا أولئك الذين يؤمنون بقواعد الإسلام، افتح عينيك للنور – إن شئت ، يهبك السلطان العظيم ملكاً ... وإن شئت فلتبق أعمى البصير ، فلن يكون نصيبك من الحياة الآخرة غير غير الشقاء"⁶⁵ دعوة هذه باطلة لأن الحكيم الغربي هو في الأصل شخصية صلاح الدين كما ذكرروا. وصلاح الدين لم عالد رتشارد قط. ولم أجد أي شواهد على ذلك خلال دراسة كتب التاريخ ولم يلتقى صلاح الدين الإبرل.

اقترح صلاح الدين بزواج أخت رتشارد

ذكر سكوت هذه القصة بلسان حكيم عربي فيقول لكنث إنى سأبوح إكراماً لك بهذا السر الذي يكاد لا يصدقه أحد – أعلم أن الصلاح الدين الذي سوف يختم بخاتم قدسى على هذا الإئتلاف السعيد بين أشجع الشجعان، أنبل النبلاء في بلاد الفرنجة وآسيا: وذلك بأن يرفع إلى مرتبة الزوجية الملكية فتاة مسيحية تصلها بالملك رتشار أو اصبر الدم وتعرف باسم السيدة أديث بلاتجنت. قد يبدو هذا الاقتراح شاذ غير مقبول وبعض المؤرخين يستبدلون ملكة نابلس الأرملة بأخت رتشارد هذه العروس، وأخو صلاح الدين بهذا الزواج ولكن يخيل لي أنهم يحملون على وجود أديث بأنها شخصية خيالية. وهناك ذكر المؤرخون أن رتشارد قد اقترح بصلة الزواج لا صلاح الدين بل لأخيه ملك العادل ولكن طرد صلاح الدين هذا الاقتراح.

التغيير في صيغ الأذان

ذكر سكوت صيغ الأذان متنازعة فتغير في الفاظه فيذكر "حي على الصلاة، حي على الصلاة، لا إله إلا الله _ حي على الصلاة حي على الصلاة – محمد رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، هذا الدار

إلى الفناء – حي على الصلاة، حي على الصلاة، إن يوم الحساب قريب." ليست هذه صيغة الأذان المشروعة في الإسلام.

References

- ¹.Milan Kondira, Fanno Rivaya,trans. Badru Din Arodki, Afriqia Asharq(Bairoot Labnan: 2021), 62 .
- Rivayah trans. wa Almalhma Bakhtin:Mikhail .²- Jmal Saeed (Kutub Darul Fikrul Arabi ,Bairoot,1982.),63
- ³ Nzzal Ashumali, Alrivaya watareekh,(Aalim kutubul hadith Jordan 2003),I:109.
- ⁴.Faisal Drraj, Ar Rivaya wa Taveelu Tareekh,Nazriya al rivayah wa Rivayah Al Arabiyah Almarkaz Assaqafi Alarbi (Al Maghrib: Adarul Baizaa, 2004)2:208.
- ⁵ Walter Scott, Al Tlisam (Edinburgh,1825),18.
- ⁶.Madik Ismul Kalb Alkanith
- ⁷.Alihsara Huna Ilal Qulzum.
- ⁷. Scott, Al Tlisam,189.
- ⁸. Scott, Al Tlisam,30
- ⁹. Scott, Al Tlisam,31.
- ¹⁰ Ibn Aseer,Al Kamil Fitareekh(Bairoot:Darul kutubul Arabi),8:12.
- ¹¹. Scott, Al Tlisam, 79.
- ¹²Scott, Al Tlisam,223.
- ¹³ . Scott, Al Tlisam,91,92,93.
- ¹⁴ . Scott, Al Tlisam,140.
- ¹⁵ . Scott, Al Tlisam,158.
- ¹⁶ . Scott, Al Tlisam,161.
- ¹⁷. Scott, Al Tlisam,222.
- ¹⁸.Scott, Al Tlisam,84,85.
- ¹⁸. Scott, Al Tlisam,20,21
- ¹⁹. Scott, Al Tlisam,33
- ²⁰. Scott, Al Tlisam,35.
- ²¹. Scott, Al Tlisam,51,52.
- ²². Scott, Al Tlisam,34.
- ²³. Scott, Al Tlisam,37.
- ²⁴ . Scott, Al Tlisam,76.
- ²⁵. Scott, Al Tlisam,75.
- ²⁶. Scott, Al Tlisam,77.
- ²⁷. Scott, Al Tlisam,147.
- ²⁸. Scott, Al Tlisam,153.
- ²⁹. Scott, Al Tlisam,138.
- ³⁰. Scott, Al Tlisam,272.
- ³¹. Scott, Al Tlisam,301.
- ³². Scott, Al Tlisam,321.
- ³³. Scott, Al Tlisam,379.
- ³⁴. Scott, Al Tlisam,178.

35. Scott, Al Tlisam,24.
36. Scott, Al Tlisam 34,37.
37. Scott, Al Tlisam,45.
38. Scott, Al Tlisam,150.
39. Scott, Al Tlisam,165.
40. Scott, Al Tlisam, 22.
41. Scott, Al Tlisam,287.
42. Scott, Al Tlisam,85.
43. Nazriyatul Adab,228.
44. Dr.Abdul Fattah Usman,BinaoRivayah, Dirasah fi rivayah al Masriyah, (Miser: Maktbah Shbab,1928),45.
45. Scott, Al Tlisam,139.
46. A.M Forister,Arkano Rivayah. trans, Mosa Aasi (Lubnan:Dar Jroos Bars ,1994) ,I:38,39.
47. Scott, Al Tlisam,30.
48. Scott, Al Tlisam,91.
49. Dr. M.Najam,Alqissafil Afabul Arbi Alhadith(Bairoot,1966),117-119.
50. Ibn Manzoor, Lisanul Arab(Bairoot)13:414.
51. Abul Biqa Alkufavi,Al kuliyat(Miser:Darul kutubul Islami),826.
52. Dr.Hmaeedul Hameedani,Binyatu Nasusardi(Almaghrib:darul Baizaa, 2008),62,63.
53. Yaqoot Hamvi,Mojamul Buldan(Bairoot:dare Sadir,1977), 2:463.
54. Hamvi,Mojamul Buldan,3:247.
55. Hamvi,Mojamul Buldan,3:248.
56. Hamvi,Mojamul Buldan,3:280.
57. Hamvi,Mojamul Buldan,3:274.

59. Hamvi,Mojamul Buldan,3:112.
60. Scott, Al Tlisam,372.
61. Mosoa Arabia Almiyah(Bairoot:Mossisa aamalul mosoa linashr wat tozee,1999),I5:126.
62. Scott, Al Tlisam,291.
63. Scott, Al Tlisam,144